اللغة العربية الفصحى والعامية

(1)

للأستاذ فولكهارد فيندور

نشرت مجلة « رسالة المعلم » (العدد الثالث 1972 م) مقالا للاستاذ فولكهارد فيندفور ننشره فيما يلي :

اللغة العربية كائن حي ، وهي تخضع لتغييرات شبيهة بالمراحل التي يمر بها الكائن الحي ، ومن هنا يتضح لنا ، ان الازدواجية بين لغة فصحى وبين لغة محلية ، ظاهرة تتصف بها كل لغات العالم .

وقد يبلغ البون ، بين اللغة الفصحى واللغة الدارجة مبلغا عظيما ، كما هو الحال في اليابان واليونان مثلا ، وقد يكون الفرق بين الصورتين للغة الواحدة بسيطا ، مثل الفرق بين اللغة الروسية الفصحى واللغة الروسية العامية .. وقبل الدخول في تحليل موقف العربية من هذه المشكلة، يجب الاخذ بعين الاعتبار ان الفارق بين اللغة العربية الفصحى واللغة العامية ، أي اللهجات العربية المحلية اقل منه بين اللغة الالمانية الفصحى واللهجات الالمانية المتعددة على سبيل المثال ... وهناك من يرى المشكلة في الشكليات ويدعو الى التفريق بين « اللغة » و « اللهجة » ، باعتبار اللهجة أقرب الى اللغة الفصحى من « اللغة » العامية ، غير انني أعتقد ان البت في الامر لا يجدي كثيرا ولا يساعد على توضيح جوهر الموضوع، فان اللغة الهولندية مثلا مجرد لهجة المانية في نظر بعض اللغويين ، في حين يصر اهل هولندة على وجود لغة هولندية مستقلة .

وأول ما نلاحظ على الوضع اللغوي في العالم العربي ، هو وجود لهجات عربية عديدة ، يستعملها الناس في التحدث دون اللغة الفصحى . فالاخيرة تعتبر لغة الكتابة التي لا يتكلمون بها الا في ظروف معينة ، كالخطب الملقاة في المناسبات المختلفة والبرامج الاذاعية والتلفزيونية والمسرحيات المختلفة ذلك ، ويمكن القول ، ان اللغة الفصحى لم تدخل بعد جميع مجالات الحياة بتلك الصورة التي توغلت بها اللغة العامية الى كل أوجه حياة الانسان ، ومما ادى الى توسيع الشقة بين الفصحى والعامية ، ان احدا لم يبذل جهدا يذكر من اجل التقريب بينهما ، والدليل على ذلك التطور ، قيام دور السينما بعرض الافلام الناطقة باللغة العامية ، وتفضيل عدد من مؤلفي المسرحيات الكتابة باللغة العامية ، بدلا من اللغة الفصحى .. والامثلة كثيرة ومعروفة لدى الجميع .

وقد عظم شأن اللغة العامية ، الى درجة تدعو الى القلق ، اذ ان الكثيرين يحررون رسائلهم بالعامية وزحف العامية لم يتوقف في المدارس والجامعات ، بدليل ان معظم المعلمين والاساتذة يحدثون تلاميذهم وطلابهم باللغة الدارجة وليس بالفصحى كما هو المفروض .

ومن المعروف ان اللغة الالمانية الفصحى ، حديثة العهد .. فهي قد نشأت في القرن السادس عشر ، عندما قام مارتين لوثر ، بترجمة الانجيل الى احدى اللهجات الالمانية المنتشرة انذاك .

أما اللغة العربية الفصحى ، فكانت موجودة منذ زمن اطول بكثير ، صحيح ان عرب الجاهلية لم تكن لهم

---

(1) ننشر هذا البحث القيم ضمن نشاط المكتب الدائم لانه يعبر عن نفس الفكرة التي أوضحناها في كتاب الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله « حول تفصيح العامية » .

لغة موحدة تماما ، وصحيح ايضا ان لغة قريش لم تتغلب على بقية اللهجات المتداولة فى شبه جزيرة العرب الا بعد نزول القرآن الكريم واهتداء الناس الى الاسلام ولكن مما لا شك فيه ان القدامى كانوا يستعملون اللغة العربية الفصحى فى نظم الاشعار والقاء الخطب . ويؤمن بعض العلماء بأن اللهجات العربية نشأت عن لغة عربية موحدة ، كانت بمثابة اللغة الام ، وقد انقرضت هذه اللغة الاصلية وتفرعت الى لهجات . غير ان البعض الآخر يؤكد ان القبائل العربية لم تتكلم قط اللغة الفصحى طوال تاريخها العريق بل كانت تلجأ اليها لاغراض محدودة . أي ان اللغة الفصحى كانت مصطنعة وليست وليدة حياة المجتمع العربي القديم .. وما زال العلماء يختلفون حول هذه المسألة ، ولكنهم يجمعون على وجود اللهجات العربية ، الى جانب اللغة الفصحى منذ فجر التاريخ .

وقد نتجت الفتوحات العربية عن انضمام دول كثيرة الى الامبراطورية الاسلامية العربية ، كان سكانها يتكلمون اللغات الاجنبية المعروفة فى المنطقة وهي الفارسية واليونانية والقبطية . ولم يلبث ان اصطبغت اللغة العربية التي ادخلها العرب الى الاقطار المفتوحة ، باللغات المذكورة (حسب المنطقة) وبذلك تبلورت اللهجات العربية المحلية كما نعرفها اليوم ، وان طرأت عليها بعض التغييرات بمرور الزمن . ولكن اللغة العربية الفصحى لم تمت ، بل صمدت فى وجه التيار الجارف للهجات العربية المختلفة . واظن ان السبب الرئيسي فى بقائها ، انها لغة القرآن الكريم . وهذه الظاهرة الفريدة فى نوعها ، لم تتكرر فى التاريخ .. وحتى اللغة اللاتينية التي كانت اللغة الرسمية لاعظم دولة عرفها التاريخ القديم ، لم تتمكن من مقاومة اللهجات الرومانية التي حلت محلها شيئا فشيئا .

ان اللغة العربية الفصحى لم تمت ــ ولكن الضعف السياسي الذي كانت تعانيه الامة العربية لمدة قرون طويلة ، اسفر ايضا عن ضعف فكري ، الامر الذي انعكس فى ركود تام فى حياة اللغة العربية ، لا سيما اثناء الاحتلال العثماني . وفى حين نشطت الحركة العلمية فى اوربا وتركت آثارها فى اللغات الاوربية الحديثة التي تطورت وتمشت مع التقدم العلمي ، بات العالم العربي معزولا عن كل حركة فكرية او علمية ، ونزل مستوى اللغة بصفة عامة . وبعد انهيار الدولة العثمانية توالت على العالم العربي فترات مختلفة من الاحتلال الاجنبي . ومن الطبيعي ان الاستعمار الانجليزي والفرنسي والايطالي لم يشجع قيام نهضة ثقافية ولغوية بالتالي ، بل بالعكس .. لقد حاول الاجانب صرف العرب عن ثقافتهم ولغتهم واسسوا المدارس والمعاهد المكلفة بنشر لغتهم وثقافتهم .. اضف الى ذلك ان العلوم الحديثة ومتطلبات الحياة العصرية ، هي التي سهلت سياسة الاستعمار واحلال اللغات الاجنبية محل اللغة العربية الفصحى فى التعليم العالي والثانوي على الاقل . وقد وصل الامر الى ان بعض العائلات العربية ، ارسلت ابناءها الى المدارس الاجنبية ، حيث تعلموا اللغة العربية الفصحى باعتبارها لغة اجنبية !! . ولكن لا يمكن انكار حاجة اللغة العربية الى الاستحداث من حيث المصطلحات العلمية وسهولة التعبير ومرونته حتى تستطيع ان تؤدي وظيفتها كاملة بمراعاة ظروف العصر الذي نعيش فيه .. غير ان الامر بسيط والنقص المشار اليه ليس نقصا فى طبيعة اللغة ، بل هو راجع الى القرون الماضية .

وقد يدعو الى الدهشة أن بعض الكتاب العرب يذهبون الى ان اللغة العربية الفصحى ، قد فرغت من مهمتها ولا يمكن الاعتماد عليها فى مواجهة العصر الحديث . ومن جملة هؤلاء الاستاذ سعيد عقل ، مفكر لبنان المعاصر ، والشاعر اللبناني يوسف الخال ، وبعض الكتاب المسرحيين المصريين . فهم يقولون ان اللغة العامية اقرب الى الحياة من اللغة الفصحى . ومنهم من يكتب خليطا بين العامية والفصحى .. ومن الطريف ان محمود تيمور ، هو الآخر شعر بحيرة أمام هذه الازدواجية فى اللغة ، وكتب مسرحية « المزيفين » مرة باللغة الفصحى ومرة اخرى باللغة العامية فى انتظار راي الجمهور .

ويطالب بعض الكتاب بضرورة « التحرر » من سيطرة اللغة الفصحى الميتة والتمسك بالعامية ، وبذل المجهود لتطويرها حتى تصبح قادرة على التعبير عن كل شيء . وهناك من ينادي بتصحيح اللغة الدارجة ورفعها الى مستوى الفصحى فى حين يدعو بعض اللغويين مثل الدكتور انيس فريحة الى تبسيط اللغة العربية الفصحى ، كحذف علامات الاعراب وترك بعض الاساليب النحوية المعقدة .. ولن يكون مثل هذا التحريك المحاولة الاولى ، فان اللغة العربية استفادت فائدة جمة من جراء الترجمات وادخال المفردات والتركيبات اللغوية الجديدة ايام العباسيين ، وقد اصبحت اللغة العربية بعد ذلك ، لغة غنية جدا ،

كانت تستوعب جميع المعاني والافكار ، بل وقد اصبحت لغة العلم الاولى بفضل ما اضفي عليها من الوان التجديد والاثراء .

ويقول الاديب المصري الكبير طه حسين ، انه من انصار اللغة الفصحى ، لأنها قادرة على التعبير عن كل المعاني لو احسن استعمالها . هذا بصرف النظر عن كون اللغة الفصحى ، من اهم الروابط التي تشد العرب بعضهم الى بعض . ويقول المفكر الالماني المشهور « فيشته » : « ان اللغة اهم الروابط التي تجمع بين افراد الامة » . .

ولو عملنا على تعظيم شأن العامية في كل بلد عربي ، لأصبح التفاهم بين ابناء الامة العربية اصعب فأصعب ، ولاتجهت الثقافة العربية اتجاهات مختلفة ، ولتهدد الكيان الثقافي والحضاري العربي كله بأخطار جسيمة على اية حال ، بيد أن المسؤولين انتبهوا الى هذه الاخطار ، واذا استمر التطور التعليمي والثقافي الحالي في البلدان العربية او نشط الى طفرات ابعد ، أمكن علاج ما اطلقوا عليه عدم مسايرة اللغة العربية الفصحى للعصر الحديث . . ان التطور السريع حقا ، ورفع المستوى اللغوي رهن برفع مستوى التعليم ، الامر الذي يسهل التأكد منه بالمقارنة بين لغة المثقفين وبين لغة الفئات الاخرى من الشعوب التي لم تنل قسطا كافيا من التعليم ، مع العلم ان النهوض باللغة لا يقتصر على استعمال مصطلحات جديدة فحسب ، بل يصل الى العمق اى الاحساس اللغوي كليا .

وموضوع آخر لا بد من التعرض له في هذا الصدد : يعتبر اقتصار معرفة اللغة الفصحى على قلة من الناس من العوامل الاليمة التي تفصل بين طبقات الشعب ، ولذلك ارى أن تعميم اللغة الفصحى ، يجب ان يشمل جميع أبناء الشعب ، فان الطبقية في التعليم عامة وتعليم اللغة خاصة ، اجنبية كانت ام اللغة الفصحى البعيدة عن الجماهير ، تؤدي الى تعقيد المشكلة وربطها بموضوعات سياسية واجتماعية .

وللوصول الى وضع لغوي طبيعي متمثل في سيطرة اللغة العربية الفصحى على اللغة العامية في شتى المجالات ، يجب رسم الخطط والالتزام بها .

واعتقد ان الخطوة الاولى ، هي رفع المستوى اللغوي في المدارس بمعنى ان المعلم يجبر على استعمال اللغة الفصحى فقط في حديثه مع التلاميذ . ثم لا بد من الاكثار من انتاج الافلام الناطقة باللغة الفصحى وتشجيع المؤلفين على كتابة المسرحيات بالفصحى ، وتأليف الاغاني بها ايضا .

ومما لا شك فيه ، ان مثل هذا التوجيه في تعليم اللغة ، قد يترتب عليه ان يتعود الناس على الفصحى ويستعملوها في حديثهم اليومي ، لكي لا يعتبروها لغة غريبة ، وسيفقد المتكلمون بها الشعور بكونها بعيدة عنهم . وهذا طور منطقي حدث في معظم دول العالم ولا سيما في الدول الاوربية كالمانيا وايطاليا .

ومن البديهي ان مصير اللهجات العربية ، لن يختلف عن مصير اللهجات الالمانية مثلا . . والتي فقدت اهميتها وتركت الميدان للغة الفصحى التي ينشأ عليها كل مواطن منذ اول يوم يدخل فيه المدرسة.

اما اللغة الفصحى ، فستتكيف تدريجيا مع حياة المجتمع وتصبح مرآة صادقة لتطوره واتجاهاته وكلما انتشر استعمالها ودخلت مجالات جديدة ، اكتسبت تلك المرونة وذلك القرب من الحياة ، التي تتمتع بها جميع اللغات المتطورة . فاللغة العربية الفصحى كنز لأهلها وليس عليهم سوى استغلال هذا الكنز خير استغلال .

(عن صحيفة « بريد الشرق » التي تصدر في كولونيا بالمانيا الغربية ـ العدد 27 في تموز 1972)